الاتجاه الواقعي في الرواية العراقية

تأليف الدكتور عمر الطالب

في فترة غياب النقد الجاد والاكتفاء بمجرد الانطباعات السريعة والآراء الخاطفة عن العمل الادبي والنظر اليه من زاوية معينة أو موقف ذاتي بحت ، يجيء كتاب الدكتور عمر الطالب ـ الاتجاه الواقعي في الرواية العراقية ـ ليحتل مكانة بارزة وليرد على تخبطات أدعياء النقد ويصبح بمثابة الوثيقة التاريخية والمرجع الذي يعتمد عليه عند الحديث عن الرواية في العراق . ولعل مرد أهميته يعود الى الحس النقدي المتوهج والثقافة الغزيرة التي تعين المؤلف على الاستيعاب والتحليل ضمن فهم سليم لطبيعة النص الادبي مع مراعاة الناحية الموضوعية والابتعاد عن المواقف الذاتية البحتة .

منذ البداية يؤكد المؤلف ان الاتجاه القصصي البارز في العراق هو الواقعية ، هذه الواقعية المشوبة بمسحة رومانسية عند البعض والمتأثرة بالاتجاهات الغربية الوافدة ، وانصر هذا التأثر على الشكل دون المضمون الذي توجهوا به نحو غايات اجتماعية وتوجيهية عبر العديد من القصص التي لم تكن متقدمة فنيا في الفترة التي سبقت الحرب التي كانت فيما بعد الحافز الكبير على انبثاق رواية فنية لما احدثته من تغييرات عديدة في مختلف المجالات ، اضافة الى وصول روايات عربية وأجنبية أحدثت تبادلا في الافكار والآراء ، وبذلك أصبحت الرواية العراقية تأخذ من الواقع وتسعى لخلق اثر فني يماثل هذا الواقع ، ولكنه في الحقيقة ينفصل عنه باستنادها على التنوع وابتكار عالم مرئي متداخل الالوان والاشكال . وقد اقتربت من رسم الشخصية ونقدت بسخرية ومرارة ظلم الطبقة الحاكمة ونددت بالاستغلال ، فكان جوهرها ليس ما يحدث بالفعل ولكن الكشف عن دلالة ما يحدث ، وليس تصويرا فوتوغرافيا بعيدا عن الصدق الفني ، اذ كشفت وبلا مواربة ومخاتلة زيف وانحلال الطبقات الغنية وبشرت بنهايتها كما في رواية « أفول وشروق » لخالد الدرة ، وبذلك أكدت قيمة الانسان ونظرت اليه ككائن حيّ متطور وليس لعبة للتسلية ، وهي بتصويرها لهذا الواقع المضطرم تهدف الى تطويره وتغييره .

بعد ذلك يؤكد المؤلف حساسية اللغة بالنسبة للكتاب ويدين جهل بعض كتابنا بها ، وينتقل الى الحوار فيتناوله ويبرز أهميته في رسم نفسية كل بطل على انفراد واعطاء الشخصيات أبعادها ، وعند الحديث عن الشخصية القصصية يرصد أبعادها ويوضحها من خلال تسليط الضوء على تطوراتها . ثم يناقش بموضوعية بعض كتاب الرواية العراقية أمثال شاكر جابر ، ادمون صبري ، وحازم مراد ، موضحا مدى نجاح كل منهم فيما يطرحه والاساس الذي يعتمده في بنائه الروائي .

ويشير الدكتور عمر الطالب الى ان الموضوع الاساسي للرواية العراقية هو المدينة التي يضيع فيها الانسان ويتوزع وتكون بالنسبة له كفول رهيب يسحق انسانيته . ويثبت ان عدم الافتصاد في الكتابة يشكل عيبا في بعض الروايات العراقية . كما ان عدم التفريق بين التفاصيل الثانوية التي تشل حركة الرواية وبين التفاصيل المهمة التي تكسبها زخما ونبضا يمثل عيبا آخر يبرزه اكثر الاسلوب الصحفي والدعائي ومن ثم الاستطراد الذي يسبب الارباك في العمل الفني .

وأخيرا يشرح التلاحم بين الشخصيات والحبكة وتبادل التأثيرات فيما بينها ، ويقرر ان الشخصية عندهم فعالة ومؤثرة في الاحداث وتستمد قوتها الحقيقية من خلال الحياة والظرف الواقعي الذي تعيشه، اضافة الى ان كل عضو يسمح بتطوير وتجسيد الاحداث ويتفاعل مع الآخرين للوصول الى الهدف . والحبكة عندهم تجيء من فهم واضح للاحداث المنطقية والتلقائية التي تحول الشخصية من موقف الى آخر مغاير له بفعل حدث يمهد الى تطور يعقبه آخر .. ونهاية الرواية عند كتاب هذا الاتجاه هي لحظة التنوير فيها وتكون قائمة اما على التوازن واما على الموت .

* * *

في القسم الموسوم ـ الواقعية الجديدة والرواية العراقية ـ يدرس المؤلف طبيعة الظروف التاريخية التي مر بها العراق وما حدث من أزمات اقتصادية وسياسية واجتماعية أثرت عليه كثيرا في ولادة هذا الاتجاه الجديد . فالطبقة البرجوازية العليا كانت قد تنكرت لقضايا الثورة والكادحين بعد تحقيق طموحاتها ومطالبها وخانت القضية بتعاونها مع الاستعمار مما أوجد الواقعية كتابع لحركة سياسية أنتجتها طبيعة المرحلة . وكان يمثل هذا العديد من صغار البرجوازيين والفئات الاخرى . والواقعية الجديدة « لا تشكل تيارا فنيا معينا وانما تؤكد اتجاها جديدا في رؤية الواقع يستند أساسه الفلسفي على الماركسية كنظرية في الطبقية والمجتمع » . وتستنير بالرواية الماركسية للمجتمع وعكسه بطريقة فنية وعفوية في العمل الفني .

ومن أسباب نجاح هذا الادب الواقعي الاشتراكي الظروف الموضوعية . فقد تم التعاون بين الاتحاد السوفياتي والحلفاء للوقوف بوجه النازية والفاشية ، وبهذا انتعشت الاحزاب الشيوعية في الوطن العربي وصدرت لها مجلات وصحف ساعدت على نشر هذا الادب ، كالطريق ، والثقافة الجديدة . وساعد تأسيس رابطة الكتاب العرب على تدعيمه اضافة الى ان العهد العثماني كان عهدا مريرا وفاسدا خلف مشاكل اقتصادية وسياسية واجتماعية ينوء بها العراق . وزاد هذا السوء سوء سيطرة الانكليز عليه ، كما ان توسع الصناعة بشكل مزدوج « توسع بطيء واحتكار » ونمو الطبقة الكادحة ثم نقد الصحافة للاوضاع في الداخل والخارج أثر في تدعيم وترسيخ هذا الادب الذي هو بطبيعته ادب ملتزم ينحاز الى جانب الطبقة الكادحة يدافعون به عن حقوقهم ويؤكدون بواسطته انسانيتهم .

الواقعية الاشتراكية ـ عند المؤلف ـ تجسيد للصراع القائم بين المتناقضات وحلها قسرا ومن ثم الكشف عن جوهر العلاقات المتشابكة بين الناس والمجتمع عن طريق دراسة هذه المتناقضات . وهي نظرة موضوعية علمية لا تعتمد على الغيب ولكن على المنطق السليم . والانسان عندها كائن شريف خير يهدف الى الخير دائما ، ولذلك تؤمن به كايمانها بقدرته على صنع قدره وبأن لا قوة في العالم ولا قانون يحول دون تحقيق ارادته .

والاديب الواقعي الاشتراكي يهضم تجارب الحياة وينظر اليها بموضوعية ، كما انه يدرك الحقائق بعيدا عن التكلف والافتعال ، ويتناول الحياة بألوانها المختلفة من حب ، كره ، قبح ، جمال ، خير ، شر ، ضعف ، قوة ، ناظرا من خلال ذلك الى المستقبل متفائلا بالانسان وبتطوره نحو الاحسن .

والواقعية الاشتراكية لا تدرس الوجه الجامد للحياة وانما تهدف الى تصوير القطاع المتطور الدائم فيها والمتجدد أبدا ، فلا تصور كل ما هو واقع في الحياة . وهي تنفذ الى جوهر الحياة ولا تكتفي بالسطح فقط كونها واقعية تنقد الحياة وتعكسها ، ليس هذا فقط وانما تشكلها وتعيد بناءها وتجعلها ذات أهمية بنقد الحاضر وفهمه في سبيل الوصول الى مستقبل اكثر اشراقا ... والمؤلف يجد في روايات هذا الاتجاه عنصرين مهمين :

الاول هو ان لكل حادث او موقف دلالة اجتماعية او دلالة ذهنية كالصراع الطبقي والوقوف بوجه الاسياد وضد الاقطاع .

أما الثاني فابراز جانب الفروسية والشجاعة والنبل في الانسان العادي لتجعله بطلا رائعا وتحوله من شيء عادي الى شيء ذي أهمية .

ومن عيوب كتاب هذا الاتجاه انهم كانوا من طبقة البرجوازية الصغيرة ويكتبون من خارج طبقتهم ومن مواقع غير مواقعهم الاصلية مما ادى بهم الى الاقتراب من الافتعال والابتعاد عن دفء الواقع لجهل القاص بظروف ونفسيات أبطاله الذين لم يعايشهم . وفي رأيي ان الاديب الناضج هو الذي يستطيع ان يكتب من خارج طبقته لان الفنان الواعي بامكانه ان يعيش تجارب الآخرين بصدق وان يحل في نفوس الشخوص ويتقمص أدوارها . وكتاب هذا الاتجاه يؤمنون بالعلاقة الجدلية بين الشكل والمضمون دون تفريغ المضمون ضمن تناسب تام ويرفضون الشكلية ، بينما نجد عند كتابنا في العراق الانفصام بين الشكل والمضمون والتضحية بالشكل من أجل توصيل الفكرة .

وهم يهاجمون الشرور الاجتماعية ويؤكدون على الواقع المحلي مبرزين خصائصه وسماته ، والحوار عندهم من الوسائل المهمة في قوة القصة ، ومن علامات قوة القصة تنمية النفسية ورصد أبعادها .

يقر كتاب هذا الاتجاه بقولة « رومان رولان » ـ ان الفن يجب ان يتدخل بشكل حتمي وبعزم ضد النفاق والظلم والاستبداد الهائل المريع في عالمه ، وضد الاوهام والخرافات الاجتماعية ـ .

والادب الكبير في رأيهم هو الذي يصلح لكل مكان وزمان ولا يكتفي بالتعبير عن عصره فقط وانما يحل قوة وسحرا خفيا يمنعه من الهروب أمام الزمن . والرواية عندهم تكشف المستقبل ولا ترضى بالواقع فقط وانما بحركته ونموه وتطوره . وكتاب هذا الاتجاه يؤمنون برأي (انجلز) بأن الادب العظيم هو الذي يعبر عن رأي في الوجود ويترجم عن موقف معين حيال النظام الاجتماعي القائم وعن نقد وأمل واتجاه .

* * *

عند الحديث عن ـ الرواية عند الاكراد ـ يتحدث المؤلف عن محلية الادب الكردي ومشاركته آداب العالم وحدة المشاعر الانسانية وتصوير خلجات الانسان بدقة فيه ، ومن ثم مفارقته عن آداب العالم في معالجة المشاكل والمساهمة في فتح طرق جديدة ووضع الحلول المناسبة لتلك المشاكل او مهاجمة التقاليد التي لا تأتلف وروح العصر.

ومن أسباب صمت الادب الكردي عند تناول الامور الاجتماعية والمسائل العامة بالنقد والتحليل الامية المنتشرة بين ابناء الشعب الكردي بشكل محزن ، وكذلك الحياة البدائية التي يحياها هذا الشعب منعزلا عن الاتصال الحضاري ، وأخيرا عدم وجود الصحافة والطباعة ودور النشر ، ولذا فان الادباء الاكراد يركزون على الشعر الذي يتناول الجوانب الروحية والذاتية ويعبر عن بعض الطموحات والآمال . وقد تأثر أدبهم بالادب الغربي والادب الاوروبي المترجم وخاصة في الشكل ، فأودعوا مأساة مجتمعهم الى الرومانسية في قوالب اوروبية مستحدثة وحدث الخلط بين البناء الاوروبي والمضمون الكردي ، ولم تكن التجربة وطبيعة الموضوع هما اللتان تحددان الشكل لديهم بتناسب .

ويؤكد المؤلف ان المسرحية والقصة عندهم محدودتان جدا وذلك لعدم الاتصال الثقافي وعدم وجود فترة انتقال ثقافي واسعة بالاضافة الى عدم تيسر ظروف الطباعة والنشر .

والادب الكردي ـ في رأي المؤلف ـ لم يقدم الجديد في الوقت الحاضر ولكنه قد يقدمه في المستقبل وذلك لوجود تراث كبير من الاساطير والحكايات عندهم . بعد هذا يتحدث عن سمات القصة الكردية التي تتميز بالافتعال والتقريرية بين القالب والمحتوى وضياع الوحدة الدرامية فيها . او هي واقعية فوتوغرافية تعتمد التسجيل ، ونحن نفتقر لها هذا لعدم خوض تجارب سابقة في هذا الحقل . والادباء الاكراد يستمدون موضوعاتهم من واقع الشعب الكادح والطبقات الفقيرة ، وفي كتاباتهم تنضح الهموم الميتافيزيقية وقضية الحرية ، ولا يخفون خلجات نفوسهم لوجود الكثير من القيود الفكرية وقيود المجتمع والتقاليد والسياسة ، والانغمار في السياسة قد يحدث انفصاما بين الشكل والمضمون عندهم . ومن الادباء الاكراد من اعتمد التسجيل فقط وبهذا تضحي روايته علمية ينقصها الابداع والخلق الفني ، كما ان التحليل النفسي محدود عندهم مع ان أغلب ابطالهم يعانون مختلف الازمات ، واستفادة الرواية من المفاهيم الشعبية ترفعها وتكسبها قوة وحيوية ، الا ان هذه القوة قد تخفت احيانا اذ تشوبها رومانسية ساذجة .

ومن كتابهم (فلك الدين الكاكائي وعبد المجيد لطفي) اللذان نجحا في بناء رواية محكمة واقامة وحدة بين النسيج والبناء ضمن فهم جيد للرواية وضمن الاختيار والانتقاء من الواقع وأحداث الحياة ، كما انهما لم يرسما الحياة ولم يكرراها ولكنهما عمدا الى تركيبها وترتيبها بشكل أفضل . وهما يختلفان في عرض الرواية . فالكاكائي يبدأ روايته بعنف وقوة بعكس لطفي الذي تنساب روايته هادئة . وقد تكون على شكل مذكرات كما هي الحال عند البعض ...

والروايات الكردية تزخر بالصراع ، وهو صراع متكامل لجوانب الحياة . ولاحداثها الاثر الكبير في انمائه وتغذيته . وهو صراع ليس بين افكار ذهنية مجردة وانما بين شخوص ومواقفهم . وتصور في هذا الصراع البيئة الكردية وانعكاس الطبيعة على سلوك الابطال ، وقد يعتمد الخوارق او اللجوء الى الخرافات او اللامعقول اضافة الى ان التحليل عندهم ينحو نحو التركيز والتكثيف والبساطة والعفوية دون الافتعال .

والرواية عند الكاكائي ولطفي تقوم على تحقيق الوحدة العضوية بتأثير الاخبار الجزئية التي تنسجم مع الحدث الرئيسي . وتجارب كتاب الرواية امينة وصادقة ، وهم يكتبون من مواقعهم ، مع حشد الشخوص دون فائدة احيانا . وشخصيات هؤلاء الكتاب تقترب من الفردية الرامزة والفردية الانسانية المتميزة . وهم يرسمون بعناية الملامح الخارجية للشخصيات .

وعندما يتحدث المؤلف عن الشخصيات في هذه الروايات يقسمها الى قسمين : فهي اما شخصيات جاهزة وثانوية تظل على الهامش ولا تؤثر في الاحداث وتظل على طول الخط محتفظة بسلوك معين ، او شخصيات نامية تؤثر وتتأثر بالاحداث . وهم احيانا يستخدمون الالفاظ العامية ويشيرون الى التقاليد والعادات المتبعة عندهم . والحوار عندهم متماسك يتناسب مع نفسيات الابطال وافكارهم ، وبتلقائية وبساطة ، ويدخل في صلب الرواية مسهما في تطويرها واغنائها ، وهم يستعملون اللغة العامية الموضحة او اللغة الفصحى دون العامية .

وينتقل المؤلف الى عبد المجيد لطفي فيتحدث عن بداياته القصصية ويحلل اعماله وفق منهج يعتمد الموضوعية والذكاء في التحليل والتفسير ومن ثم الحكم ، ويصل الى مرحلته الاخيرة فيوضح سماتها وما حصل من تطورات شارحا اسلوب وطريقة واخيرا فكر لطفي من خلال اعماله .

* * *

يرى الدكتور عمر الطالب في فصل ـ الرواية العراقية النفسية ـ ان تمزقات الجيل الجديد كانت نتيجة الالتقاء الحضاري بين الشرق والغرب . فقد احدث ذلك انفصاما شديدا متعارضا ما بين العقلية الوافدة من الخارج وبين المجتمع المتخلف ، كما ان تفاقم الازمات الاقتصادية والسياسية العنيفة اثرت على العراق ونكبت الالاف من

المسحوقين . وجاءت الحرب العالمية الثانية بكل ما خلفته من عقد ومشاكل ، اضافة الى مأساة فلسطين التي هزت الضمير العربي ،

فنتج عن هذه الظروف الرواية النفسية التي تتناول قضية الحرية ، وتكون شخصيات هذه الحريات قلقة تبحث بلا تعب عن مصيرها وهي مهددة ومحاصرة وحريتها مهدورة . وجر هذا الامر الى التركيز على الذات والانكفاء على العالم الداخلي لهم فأدى ذلك الى التمزق .

وانطلق كتاب هذا الاتجاه من (الرغبة في بلورة حالة الحصار والقهر التي يعيشها عدد هائل من العراقيين) . وما ازدهار العلوم الرياضية والنفسية وظهور النسبية في القيم والاشياء والعلاقات والنظرة الجديدة الى الزمان والمكان الا من العوامل المساعدة على نمو هذا الادب .

ولقد كان احساس هؤلاء الكتاب بالذات كبيرا ، وكانت الحياة عندهم كآبة وضجر . وهذه النظرة تجعلهم يعجزون عن الانتماء الى الواقع . ولم يقتصر الامر على ذلك وانما رفضهم القاطع للواقع ومخلفاته دون ان يحاولوا تفسير هذا الواقع .

ويوضح المؤلف اثر نظريات فرويد ويونغ عن الجنس في رؤية كتاب هذا الاتجاه . والحياة في كتاباتهم فيحركة وعنفوتغير . والمؤلف يناقش بعمق وذكاء كتاب هذا الاتجاه ومواقفهم من العلم من خلال ذاتهم المحدودة التي يمكن ان تتحول الى قوة مدمرة اذا لم تشذب وتنظم ، علما بأن الذات الانسانية تتكون وتستمد سماتها من العالم الخارجي ، وتجاوز الانسان المدرك لذاته يتم من خلال ايديولوجية انقلابية على الذات وجعلها تسير في خط يتوازى مع المجتمع .

ويلاحظ ان كتاب هذا الاتجاه ينغمرون في الجنس ناشدين من خلاله نسيان همومهم ومشاكلهم . كما انهم يعبرون عن نماذج البرجوازية الصغيرة وأحزانها وتعقداتها وما تعانيه من آلام محاولين تبرير مواقفها الانهزامية المتخاذلة . ولكنهم في قرارة نفوسهم كانوا يؤمنون بمواقفها السلبية ناسين ان الشر ليس مشكلة فردية بقدر ما هو مشكلة انسانية كبرى .

ويبين الدكتور الطالب ان روايات هذا الاتجاه تفتقر احيانا الى الصدق الفني ، ومن عيوبها التعريض بالشخصيات السياسية . يضاف الى ذلك الدعائية والنظرة الى من يخالفهم الرأي نفس النظرة الحاقدة التي تنظرها الاحزاب لاعدائها . وروياتها تستند الى السرد والمنولوج والانتقال من الماضي الى الحاضر ، وصهر الزمن في بودقة واحدة .. لان الزمن مثل كائن مرعب تتحطم امنياتنا على صخرته ، وقد كان بروست وجويس ضد اضطهاد الزمن ، فعمدا في كتاباتهما الى حصره في لحظات قصيرة ، اي الكتابة الطويلة والاحداث ضمن فترة قصيرة في محاولة لقهر قوة الزمن ، وكرد فعل لحركته التي تسحق الانسان وتجعله يصحو في النهاية على الحياة تتسرب من بين يديه كالرمل ..

وتستفيد هذه الروايات من اسلوب التقطيع السينمائي دنتمهيد، وتهتم بخلق الجو النفسي للبطل والاستفادة من المحاورة الداخلية واستغلال تفاصيل الاحداث لمحاولة ابراز القلق ، وهم يهتمون برسم الملامح المادية الخارجية للشخصيات من حركة او اشارة او وضع معين. كما يهتمون بالتركيز على بطل أساسي بدلا من توزيع الرواية على عدة اشخاص ، كما ان اهتماماتهم بتيار اللاوعي أبعدهم عن الالتفات للحوار .

اخيرا يناقش المؤلف قضية الحرية من خلال رواية « السجين » لانيس زكي حسن نقاشا جادا وموضوعيا تعززه ثقافة واسعة وانفتاح لفهم الاشياء المعارضة لرؤياه بلا ابتعاد عن الموضوعية .

ان هذا الكتاب من الكتب النقدية المهمة وسيظل مرجعا كبيرا يبرر وجود نقد ناضج لا يدرس الاحداث بمعزل عن بعضها او وفق نظرة ضيقة ، بل ضمن نظرة ثاقبة شاملة وضمن منهج علمي سليم يقترب من طريقة المفكر الانكليزي (كولن ولسن) في كتابه « اللامنتمي » .

الموصل — **نجمان ياسين**

صدر حديثا :

من وحي
جبران خليل جبران

رسائل حب

اختارها وترجمها بتصرف
اميل خليل بيدس

في الثاني عشر من نيسان (ابريل) ١٩٣١ ، قضى جبران نحبه .

وفي وصيته ، كتب جبران : « كل شيء في مرسمي ، من رسوم وكتب وقطع فنية ، أخص به ماري هاسكل » .

* * *

أمضت ماري الحزينة نهار العشرين من أيار ١٩٣١ ، في المرسم تتفقد وتراجع .. كانت وحدها مع فكرها ومع ذكرياتها ..

اتصلت « بنعيمه » فجاء مسرعا ، وقضى وقتا معها يعينها في مهمتها ..

عثرت ماري على كتبها الى جبران .. الرسائل التي بعثت بها اليه .. جميعها .. التي كتبتها في عشرين عاما .. مئات من الرسائل ، جمعتها بمحبة وأشفقت على نفسها وعلى الذكرى وعلى التاريخ فلم تحرقها ، وضمت رسائله الى رسائلها ..

* * *

من هذه الرسائل ، انتقى الاديب أميل خليل بيدس ما يكشف عن جوانب هامة من حياة جبران وشخصيته وعلاقاته بالناس والمجتمع والحياة ، وما فيها من آلام وبشائر فرح ، فنقلها الى العربية بأسلوب أدبي رائع ، لتكون قريبة وسهلة التناول لقراء العربية..

* * *

مجموعة في ٤ أجزاء باخراج رائع وحلة أنيقة
صدرت عن :

منشورات زهير بعلبكي
بيروت

توزيع دار الآفاق الجديدة

ص.ب ٧٣٠٢ — بيروت ـ لبنان